

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ القاعدة الرابعة من قواعد المجاز ❦

(في ذكر أسرار التمثيل ومعناه)

اعلم أن علماء البيان وفرسان البلاغة بالاضافة الى ترجمة هذه القاعدة فريقان ، الفريق الأول أدرجوها في ضمن قاعدة التشبيه ، ولم يفصلوا بينهما تفصيلاً وهذا هو الظاهر من كلام المطرزي ، فأما ابن الأثير فقد صرح بكونهما باباً واحداً لا تفرقة بينهما وتعجب ممن فصل بينهما قال وما أعلم كيف خفي على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه ، وحكى أن بعض علماء البيان قد فصل بينهما وغاير بين حقيقتيهما وهما عنده شيء واحد ، الفريق الثاني وهم الذين فرقوا بينهما ، وهذا هو ظاهر كلام ابن الخطيب الرازي في نهاية الإيجاز ، وعبد الكريم صاحب التبيان ، فانهم ميزوا أحدهما عن الآخر وفرقوا بينهما ، وقالوا : إن التشبيه غير معدود من المجاز ، بخلاف التمثيل ، فإنه معدود من جملة قواعده ، وإن كانا

كلاهما معدوداً من أودية البلاغة ، فهذا مغزى كلام الفريقين
في الردّ والقبول ، وهذا الخلاف يقرب أن يكون لفظياً ،
وليس وراءه كبير فائدة ، والمختار عندنا تفصيلٌ نُشير إليه ،
وحاصلهُ أننا نقول ، القاعدةُ التي رسمناها من أجل التشبيه ،
إنما كانت بمظهر الأداة ، كما أوردنا أمثله ، وفصلناها
وعدّدنا ما كان من التشبيه مضمراً الأداة ، فهو من باب
الاستعارة ، وأوضحنا الأمر فيما يظهر على القرب فيه التشبيه ،
وما يُستنبطُ على البعد فأغنى عن تكريره ، فإذا عرفتَ هذا
فاعلم أن كلَّ ما كان من التمثيل تظهر فيه أداة التشبيه ، كالكاف ،
وكأن ، فإنه معدودٌ من جملة التشبيه ، ولا يفتقران بحال ، لأن
التشبيه أكثر ما يطلقُ على ما كانت الأداة فيه ظاهرةً ،
فأمّا ما كانت الأداة فيه غير ظاهرة ، فهو التمثيل ، فإنه
لا يقال له تمثيلٌ إلا إذا كان وارداً على حدّ الاستعارة ،
ولهذا فإنّ الزمخشريّ رحمه الله في تفسير قوله تعالى « ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » الآية ، تارةً
يجعله من باب التمثيل ، وتارةً يجعله وارداً على حدّ الاستعارة ،
وعلى الجملة فالأمرُ فيه قريبٌ ، فإن الاستعارة ، والتمثيل ،
والكناية ، كلّهُ معدودٌ من أودية المجاز ، بخلاف التشبيه ،

فإن ما كان منه مضمراً الأداة، فهو معدودٌ في الاستعارة
والتمثيل، وهو مجازٌ، وما كان مظهر الأداة فليس معدوداً من
المجاز، وإن عدَّ في البلاغة كما أسلفنا تقريره، ومن غريب
أمثلة التمثيل ما قاله ابن الرومي

إذا أبو قاسم جادت لنا يده
لم يُحمَدِ الأجودانِ البحرُ والمطرُ
وإن أضاعت لنا أنوارُ غرته
تضائلَ النيرانِ الشمسُ والقمرُ
وإن نضاً حدّه أو سلَّ عزمته
تأخَّرَ الماضيانِ السيفُ والقدرُ
من لم يبتِ حذراً من سَطو صوتِه
لم يذرِ ما المزعجانِ الخوفُ والحذرُ
ينالُ بالظنِّ ما يعي العيانُ به
والشاهدانِ عليه العينُ والأثرُ

ومن ذلك ما قاله أبو تمام
مها الوحشِ إلا أن هاتا أوائسُ
قنا الخطِ إلا أن تلك ذوابلُ

ومن جيد ما يُقال في أمثلة التمثيل قوله تعالى « أفرايت
مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً » مثل الله تعالى حال مَنْ اتَّقَادَ لِهَوَاهُ ،
واستولى عليه سلطانُه ، حتى صار عقلُه موطوءًا بقَدَمِ الهوى ،
وجُعِلَ في إيسارِ الذَّلِّ ، وريقةِ المَلِكَةِ وَحَصَلَ غالبًا عليه في
جميع أحواله مُطيعًا له في كلِّ أموره ، بحال مَنْ له إِلَهٌ يعبُدُه ،
ويطيعُه في جميع أوامره ونواهيه ، ثم لما علم اللهُ تعالى من
حاله ما ذكرناه أضاهُ بترك الألفاظ الخفية على علمٍ
باستحقاقه للخذلان لاٍ عراضه ، ومثَّلتُ حالته فيما صار إليه من
الخذلان بسلب الألفاظ ، بحال مَنْ خُتِمَ على سمعه ، وقلبه ،
وجُعِلَ على بصره غِشَاوَةٌ ، في النُّكُوصِ والتمرد عن الهدى ،
وسلوك جانب النفي ، وركوب غارب البغي ، فمن هذه حاله لا
يُرْجَى صلاحُه ، فهكذا حال مَنْ سَاعَدَ هَوَاهُ وكان مطيعًا له في
الأمور كلها ، ومن التمثيل الرائق قوله تعالى « وجعلنا على
قلوبهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » وقوله « وجعلنا من بين أيديهم
سَدًّا ومن خلفهم سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » فهم
لاٍ عراضهم عن الدين ، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به
الرسولُ صلى اللهُ عليه وسلم وبلوغ الغاية في الصّدِّ والنكوص ،

مُثَلُّونَ بِحَالٍ مِّنْ جُعِلَ عَلَى قَلْبِهِ كِنَانٌ فَهَوَ لَا يَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهُ ،
وَلَا يَرْعَى لِقَبُولِهِ ، وَبِحَالٍ مِّنْ ضُرِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ سَدًّا
مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَمِنْ خَلْفِهِ ، فَهَوَ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ ، وَلَا يُمْكِنُهُ
الْوَصُولُ إِلَى بُغْيَتِهِ بِحَالٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى « مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ » فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ
التَّمَادِي فِي رُكُوبِ الْبَاطِلِ ، وَإِكْبَابِهِمْ عَلَى الْجُحُودِ
وَالكَيْتَمَانِ لِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، وَقَطْعُ الرَّجَاءِ بِخَيْرِهِمْ ، وَسَدُّ
لِطَرِيقِهِ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَدٌّ ، وَمِنْ خَلْفِهِ سَدٌّ ، وَأَغْشَى
عَلَى بَصَرِهِ ، تَعَطَّلَ ، فَأَتَى يَكُونُ لَهُ اهْتِدَاءٌ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ ،
وَسُلُوكٌ بِسَبِيلِهِ ، وَهَذَا بَابٌ مِّنْ فَنِّ الْبَلَاغَةِ يُقَالُ لَهُ التَّخْيِيلُ ،
وَسَنُورِدُ فِيهِ حَقَائِقٌ وَأَمْثَلَةٌ شَافِيَةٌ عِنْدَ الْكَلَامِ فِي مَعَانِي
الْبَدِيعِ ، وَخَصَائِصِهِ ، وَمِمَّا وَرَدَ مِنَ التَّمَثِيلِ فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ
قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِيَّاكُمْ وَفُضُولَ الْمَطْعَمِ فَانْهَ يَسِمُ
الْقَلْبَ بِالنَّسْوَةِ ، وَيَبْطِئُ الْجَوَارِحَ عَنِ الطَّاعَةِ ، وَيُصْمُ
الْأَذَانَ عَنِ سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَفُضُولَ النَّظَرِ ، فَإِنَّهُ يَبْذُرُ
الْهَوَى ، وَيُولِّدُ الْفَتْلَةَ » وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « حَلُّوا
أَنْفُسَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَأَلْبِسُوهَا قِنَاعَ الْخِيفَةِ ، وَاجْعَلُوا حَرَّتَكُمْ

لأنفسكم ، وسعيكم لمستقرِّكم » ومن كلام أمير المؤمنين
في التمثيل ، في كلام يُشير به الى الخوارج « حَاوَلَ القَوْمُ
إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ ، وَسَدَّ قَوَارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ ،
وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَشْرَبًا وَبَيْتًا ، فَإِن تَرَفَعْنَا وَعَنَّا وَعَنْهُمْ
مَحَنُ الدُّنْيَا أَحْمَلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ ، وَإِن تَكُن
الْآخِرَى فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » وقال في كلام
يصف به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وَذَمَّهُ لِلدُّنْيَا « قَضَمَ
الدُّنْيَا قَضْمًا ، وَلَمْ يُعْرِهَا طَرْفًا ، أَهْضَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا ،
وَأَخْضَمَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا ، أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ
ذِكْرَهَا عَنِ لِسَانِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنِ عَيْنِهِ »
وقال في وصف أهل الدنيا « يُمَسِّي مَعَ الْغَافِلِينَ ، وَيَعْدُو مَعَ
الْمَذْنِبِينَ ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ ، حَتَّى إِذَا كُشِفَ
لَهُمْ عَنِ جِزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ وَاسْتُخْرِجُوا مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ ،
اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا ، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبَلًا ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أُدْرِكُوا
مِنْ طَلِبَتِهِمْ وَلَا بِمَا قَضُوا مِنْ وَطَرِهِمْ ، وَلِنَقْتَصِرَ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ
فِي التَّمثِيلِ فِيهِ كِفَايَةٌ ، فَيَنْجَلُّ مِنْ مَجْمُوعِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِفَارِقَتُهُ
لِلتَّشْبِيهِ بِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعَارَةِ ، عَلَى

أن الاستعارة في المفرد والمركب كما مهدناه من قبل ، بخلاف التمثيل ، فإنه إنما يرد في المركب من الكلام كما أوضحناه في هذه الأمثلة

* تنبيه *

اعلم أن أرباب البلاغة وجهابذة أهل الصناعة ، طُبقون على أن المجاز في الاستعمال أبلغ من الحقيقة ، وأنه يلطف الكلام ويكسبه حلاوة ، ويكسوه رشاقة ، والعلم فيه قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر » وقوله « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » فلو استعمل الحقائق في هذه المواضع ، لم تعط ما أعطى المجاز من البلاغة ، وهكذا فإن الاستعارة أبلغ مما يظهر فيه التشبيه ، لأن قولك جاءني أسد أبلغ من قولك زيد كالأسد ، لأنك جعلته في الأول نفس الأسد وفي الثاني ليس إلا مشابهة لا غير ، فأما الكناية ، والتمثيل ، فهما نوعان من أنواع الاستعارة ، والاستعارة أعم فيهما كما أوضحناه من قبل ، لكن الكناية مؤدية للحقيقة ، والمجاز بخلاف الاستعارة ، والتمثيل ، من حقه أن يرد في المركبات ، فلاجل هذا كان جميعاً أعني الكناية والتمثيل أخص من

الاستعارة، وقد نَجَزَ غرضنا من تقرير الباب الأول وهو
حصرُ قواعد المجاز، وإظهار أمثلتها وأحكامها، وأُشْرِعُ الآن
في الباب الثاني مستعينا بالله ومتوكلا عليه

❦ الباب الثاني ❦

(في ذكر الدلائل الإفرادية وبيان حقائقها)

اعلم أن اللفظ في دلالاته على ما يدلُّ عليه لا يخلو حاله ،
إمّا أن يكون بالإضافة الى مفرداته ، أو بالإضافة الى ما
تركب منه ، فالأولُ هو الدلالةُ الإفرادية ، وهذا كدلالة
لفظ الرجل ، ، والأُسْد ، والإِنسان ، على معانيها المفردة ،
فإنها دالةٌ عليها من غير إضافة أمر إليها ، لا سلباً ولا إيجاباً ،
والثاني هي الدلالةُ التركيبية ، وهذا كدلالة قولنا زيدٌ
قائمٌ ، وعمرٌ خارجٌ ، فإنَّ ما هذا حاله دالٌّ على معنى مركب ،
وهو إضافةُ هذه الأحكام لتحصل من أجلها الفائدة المركبة ،
وهذا هو الكلامُ في السنة النجاة ، ويقال له الجملةُ ، ثم إنَّ
الفائدة التي يفيدها الكلامُ على وجهين ، أحدهما أن تكون
من جهة ذاته كقولنا زيدٌ قائمٌ ، وعمرٌ منطلقٌ ، فإنَّ ما هذا